جدلية العلاقة بين السياسة والسلطة

طاهر المصري.. طائرٌ بجناحين

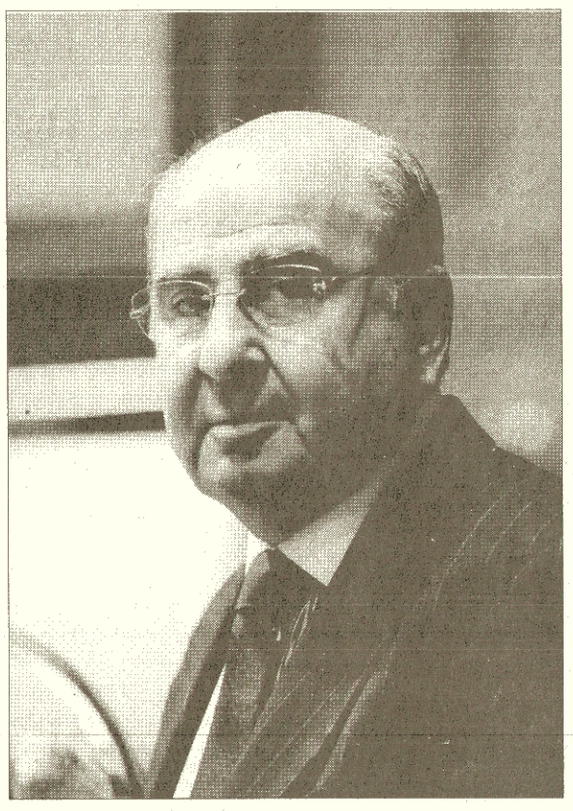

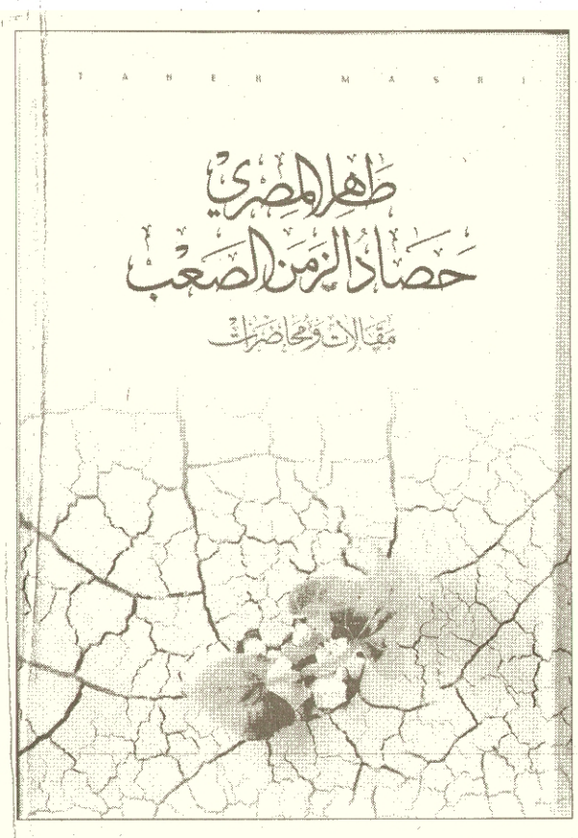

نضال القاسم *

إن نظرة فاحصة على كتاب (حصاد الزمن الصعب: مقالات ومحاضرات) لمؤلفه دولة الأستاذ طاهر المصري رئيس الوزراء الأردني الأسبق والصادر مؤخراً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر تجعلنا ندرك المقصد العظيم والغاية المباركة لهذا الجهد الموسوعي الجليل الذي قام به دولة الأستاذ طاهر المصري، والذي يعتبر أحد أبرز الرموز السياسية الوطنية في الساحة الأردنية في الوقت الحاضر.

وطاهر المصري، سياسي مخضرم، وشخصية نادرة، وظاهرة من الظواهر غير العادية التي لمعت على الساحة الأردنية خلال العقود الخمسة الماضية، وقد استطاع الرجل بسمته وحكمته وصبره وإخلاصه، أن يحتل مكاناً متميزاً في قلوب الناس، وجدير بالذكر هنا أن دولة طاهر المصري حاصل على بكالوريوس إدارة أعمال من جامعة شمال تكساس ١٩٦٥/ الولايات المتحدة الأميركية، وقد شغل عدة مناصب مهمة في المجالات السياسية والإدارية والمالية، وهو عضو في مجموعة من الجمعيات العلمية العربية والعالمية، وله العديد من الكتابات في الصحف والمجلات العربية والعالمية، وتولى جميع المواقع المتقدمة منذ نصف قرن تقريباً، تسلم خلالها رئاسات ثلاث، الحكومة والأعيان والنواب، الأمر الذي لم يتكرر في عمر الدولة إلا مرة واحدة على حد قول دولة السيد عبد الرؤوف الروابدة في الكلمة التي ابتدأ بها حفل تكريم دولة طاهر المصري بعد انتهاء مهامه كرئيس لمجلس الأعيان.

وقد ظل دولة الأستاذ طاهر المصري طوال حياته كبيراً واسع الصدر حريصاً على التمسك بهدفه، مخلصاً في رأيه، مؤمناً به، جريئاً في الإعلان عنه، مهما كان مخالفاً لرأي أقرب الناس إليه، أو اتجاه الجمهور، وقد أنبتت هذه الجرأة من حوله الخصوم، وأثارت في وجهه الزوابع، ولكنه بالإيمان والثبات كان على ثقة دائماً من كسب قراءه وسامعيه ومحاوريه، مثلما كان على ثقة من الفوز والنجاح في نهاية المطاف، هذه الحقيقة يعرفها كل من دخل معه في مناقشة، أو تابعه في ندوة من ندواته. وهو ما زال يحمل مشعل المحبة والإنسانية ويواصل نشاطه السياسي والفكري والاجتماعي على حد سواء، ليؤكد لنا أنه ما يزال بيننا بكل خلقه وعلمه وفضله مثالاً للبناء والإيجابية.

وما يميز هذا الكتاب هو أنه يقدم لقارئه ثقافة سياسية وفكرية واجتماعية متميزة تجاه وقائع وأحداث عاشها الاردن والمنطقة العربية عموما في العقود الاخيرة، وهو ليس مجرد سرد تاريخي عن حياة مؤلفه الشخصية أو دوافعه السياسية، وإنما هو شرح لبعض الجوانب السياسية والإدارية والاجتماعية، وهو أسلوبٌ جديد في الكتابة يجمع بين فن السيرة الذاتية والمذكرات، إذ في كل مقال كلام غير عادي، في كل مقال معلومة وخبر وعظات وعبر.

وقد عرف دولته من خلال حياته العملية الغنية والطويلة أنماطاً من الناس، وعايش كثيرا من الكتاب والمفكرين ورجال السياسة الذين أعطوا أمتهم العربية جهدهم وحياتهم ودمهم، وكانت له مع كل منهم وقفة بل وقفات، وما هذه الوقفات والشهادات الموجودة في هذ الكتاب إلا غيض من فيض، وهي لاتدل على الشخصيات الفكرية أو السياسية أو الأدبية التي كتب عنها دولة طاهر المصري فحسب، بل تدل على مراحل من التاريخ المعاصر لعبت هذه الشخصيات أدواراً فعّالة بلغت أحياناً من القوة إلى حد مشاركتها في المتغيرات التي حدثت على سطح أو في عمق الحياة العربية الثرّة والموّارة بالأحداث منذ منتصف الستينيات وحتى اليوم.

والذي يلفت النظر من خلال المقالات المنشورة في الكتاب أن علاقات طاهر المصري لم تكن مع العاملين معه والذين يعرفهم أو الذين يتفق معهم في الرأي فقط، فمن خلال محاضراته ومقالاته المنشورة كان طاهر المصري يحفر معنى الوفاء والنجاح والاعتراف بإمكانية الالتقاء في المضمون والهدف ما بين اليمين واليسار وما بين المسلم والمسيحي وما بين الشرقي والغربي والشمالي والجنوبي، فالكتاب يضم إلى جانب المقالات المنشورة عدداً من كلمات التأبين التي ألقيت في العديد من المناسبات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الكلمة التي ألقيت في حفل تأبين الدكتور يعقوب زيادين والتي يقول في مقمقمتها (ليس من السهل اختزال حياة شخص بقامة يعقوب زيادين وتاريخه النضالي، بكلمة أو حتى بكتاب. فالرجل مخزون في مسيرة الحركة الوطنية في الأردن، وهو سنديانة اليسار الأردني التي لم تشخ أو تنحني، رغم المعاناة والقهر والسجن.

هو وطني، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه بمعتقداته. ومما لا شك فيه أن الأمم تبنىْ بهكذا رجال، خصوصاً من يتمتعون بخصال الخلق الطيب، والقيم الإنسانية الرفيعة، وهي خصال تتناسب وسيرته الوطنية....انتهى الاقتباس، حصاد الزمن الصعب، ص٥١).

ويبحث المؤلف في المستوى القيادي الرفيع والرصين الذي كان للشهيد وصفي التل، كواحد من القادة السياسيين الكبار، الذين فرضوا حضورهم في الذهنية العامة لشعوبهم بعد رحيلهم، ولا يوجد قائد ناجح نال من الثناء والاستحسان كما نال الشهيد وصفي التل، والذي يرى أن شخصيته (تجمع بين مسارين متلازمين لا تناقض بينهما، فهو – رحمه الله – قومي عربي انخرط في القضية العربية عموما، والقضية الفلسطينية بشكل خاص، وفق رؤية قومية واضحة، وهو وطني أردني، يؤمن بحتمية أن يكون الوطن القومي، هو المرحلة الأولى نحو العمل القومي العروبي كذلك.

كان الشهيد وصفي التل واضحا تماما في قناعاته ومنطلقاته السياسية، ولا يتردد في إعلانها على الملأ، لشدة إيمانه بها، ولهذا فقد شكل ذلك مصدر خلاف له مع آخرين كانت لهم رؤاهم الخاصة بهم.........انتهى الاقتباس، حصاد الزمن الصعب، ص١٤١).

وفي مقدمته للكتاب يرى معالي محمد بن عيسى/ الأمين العام لمؤسسة منتدى أصيلة– وزير الخارجية والتعاون السابق في المملكة المغربية، بأن ما أدهشه في الكتاب هو على حدّ قوله (قدرته الفائقة على المزاوجة بين الأسلوب الدبلوماسي، بما يحتويه من إيماءات ورموز وتعبير بالإشارة، وبين لغة أخرى واضحة وصريحة بل مباشرة لا تخلو من نبرة النصيحة والموعظة. يتوسل بها المؤلف أحيانا حين يرتدي زي الداعي المتحمس إلى إصلاح المجتمع وتحديثه، وتبصير المواطنين بالقيم الأصيلة التي يتوجب عليهم التشبث بها، لتعميق وحدتهم وتنظيم عيشهم المشترك فوق أرض الوطن الواحد الموحد، مستندين على ميثاق التسامح والحوار ومستلهمين مرجعية القيم الوطنية النبيلة...W.

مختتما، أن طاهر المصري مجرد مواطن جندي أردني مخلص، يعشق الأردن أولاً، وفلسطين الحبيبة والعروبة، وليس بحياته عشق آخر.....انتهى الاقتباس، حصاد الزمن الصعب، ص٦).

ويسلط الكتاب الضوء في فصوله المختلفة على العديد من الأحداث والقضايا المهمة التي عاصرها الوطن والأمة مثل الوحدة الوطنية والحرب على العراق والاصلاح السياسي، وهو يوثق لطروحات وتحولات الاقليم، فضلاً عن نظرة دولة طاهر المصري تجاه المسألة الديمقراطية ونهجه الاخلاقي في العمل السياسي. ويتعرض الكتاب بالتفصيل للعديد من القضايا المحورية في الأردن والمنطقة العربية والعالم، والتي منها على سبيل المثال لا الحصر مخاطر الوضع الإقليمي على الأردن وماذا عملنا لمواجهتها، والأردن في بيئة إقليمية متغيرة– سيناريوهات المرحلة المقبلة، ولواقع الحياة السياسية في الأردن وتطلعات المستقبل، والرؤية المستقبلية للمنطقة بعد التسوية السلمية، والعقد الأردني لحقوق المواطنة وواجباتها، والأنماط الجديدة للمشاركة السياسية في عالم اليوم، وإدارة الدولة الأردنية بين النظرية والتطبيق، ونحو بناء نظام عربي جديد في عالم متغير، والوحدة الوطنية كأحد عناصر الأمن الوطني، فهو يرى أن (مصطلح الوحدة الوطنية، يشمل سائر مكونات المجتمع الأردني، بغض النظر عن الأصل، أو العرق، أو الدين، أو المعتقد السياسي، وهذا يتطلب بالضرورة، الإجابة وبوضوح، عن جميع الأسئلة المعلقة، في نفوس هذه الفئة أو تلك من مكونات المجتمع. ومن هذه الأسئلة التي تبرز بين الحين والآخر، موضوع الوطن البديل، أو ما يسمى بالوطن البديل، وكذلك موضوع المواطنة والمصير، فالوطن البديل بضاعة إسرائيلية بامتياز، ومؤامرة صهيونية على الأردن وفلسطين معاً، هدفها تهجير الشعب الفلسطيني من وطنه، وفق سياسة إسرائيلية ترى الأردن، وطناً بديلاً للشعب الفلسطيني، وترى كامل فلسطين، وطناً ليهود الأرض. وهذا يولد مخاوف مشروعة من تبعات هذا المخطط العدو.....انتهى الاقتباس، حصاد الزمن الصعب، ص١٨١).

وكطائر يطيرُ بجناحين فقد نذر طاهر المصري حياته للأردن، وقدم له الكثير من الجهد والعملَ معتبراً أن الأردن العزيـــز أمانةٌ في أعناقنا جميعاً، ومن يتنكرُ للأمانة ليس منا، وواجبنا، الدفـاع عن الوطنْ، وعن منجزاتهْ وعن وجوده صلباً قوياً في مواجهة التحدياتْ الكثيرة في هذا الزمان المرير، أما فلسطين الجريحة التي احتوته عقلاً وجسداً، فقد ظل على الدوام ابنا باراً لها، وقد نالت القضية الفلسطينية بوصفها القضية الأولى للعرب وللمسلمين اهتمامه في أغلب مقالاته ومحاضراته، فهو يرى أن جهلاً عظيماً قد أحاط بالناس فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وأرض فلسطين المباركة، ولأن قضية فلسطين من أهم قضايا العرب والمسلمين فقد رأى دولته أن من واجبه وواجب العاملين في حقول التوعية المختلفة في العالمين العربي والإسلامي أن يقدموا جميعاً ما يستطيعوا تقديمه من أجل دحض مزاعم اليهود وأكاذيبهم في حقهم التاريخي بأرض فلسطين، وأن يبذلوا كل جهد وقدرة لخدمة هذه القضية ونصرتها ونصرة الأقصى الأسير، وهو يرى أن (الأيام لا زالت حُبلى بأحداث جسام تقاطعت فيها المصالح الدولية تارة، والتقت تارة أخرى، مع كل ما أفرزه من حروب ونكبات وكوارث بشرية لست أشك أبداً، في أن (القضية الفلسطينية) هي جذرها ومبرر حدوثها، جراء تراكم الظلم الدولي الذي أحاط بهذه القضية حتى يومنا هذا....انتهى الاقتباس، حصاد الزمن الصعب،ص١١).

لقد ظل طاهر المصري بعفويته وصدقه، ورؤيته العميقة الصادقة وشجاعته، وصراحته وقربه من الناس الذين سعى إلى خدمتهم بأمانة وإخلاص، ابناً لهذا البلد، لم يتغيرْ ولم يُبدل مبادئه بتبدلِ المواقع، آمن بالشعب وبالقيادة الهاشمية وبأن الدستور يجب أن يحترم نصاً وروحاً وحرص على أن يحافظ على إتزانـه مهما كانت الظروف، ولا شك أن كتابه الصادر حديثاً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر مميز وسلس، وهو كتاب يحلق بالقارئ عبر الزمن لاسترجاع ذكريات الماضي مستنهضاً بها الهمم نحو المعالي، ويعتبر مرجعاً هاماً يجمع حصاد السنين ويروي الذاكرة كما هي، دون تجميل أو مجاملة. فالكتاب يوثق بدقة على مسافة نصف قرن تقريباً، لأبرز الأحداث المفصلية والصعبة التي شهدها الأردن والإقليم.

وطاهر المصري، شخصية نـادرة، كان ولا يزال في تقديري إنساناً يستحق دراسة عميقة، فقد أمضى دولته أيامه بين مواقع مختلفة من الوظيفة إلى النيابة ثم إلى الوزارة، وبعدها السفارة، ليجلس بعد ذلك على كرسي وزارة الخارجية، في ظروف استثنائية، ومن هناك اختاره جلالة الراحل الملك الحسين بن طلال رئيساً للوزراء، ثم أصبح بعد ذلك رئيساً لمجلس النواب الثاني عشر، ومن ثم رئيساً لمجلس الأعيان، وقد أراد دولته من خلال هذا الكتاب أن يؤطر المفاهيم حتى تبقى واضحة لا لبس فيها، وأن يقدم للقراء في كل مكان في العالم فكره السياسي والاجتماعي، بثوابته ومتغيراته، كما تشكل وتبلور على امتداد مسيرته الطويلة في العمل العام، والتي آمن فيها طيلة السنوات الماضية من عُمره، بمنظومة مترابطة من المبادىء والقيم، وحرص خلالها على الدوام، أن يكون صادقا مع نفسه وأمته، وأن يعبر عن رأيه في مجريات الأحداث في وطنه بصراحة وموضوعية، وأن يتخذ الموقف الذي يؤمن به صادقا مع نفسه وبلده وأهله وقيادته دون شخصنة المواقف أو دون الإساءة لأحد، ولربما كان في ذلك، شيء من المُعاناة، خاصة عندما كان يُفهمُ الرجل ويتم تأويله وتفسيره على غير ما يقصدْ، ومـن يقرأ هذا الكتاب، ربما يلحظ ذلك بوضوح، فلقد أثبتت السنين والاحداث، أنه ربما كان على صواب في الكثير مما قاله، ومما إقترحهُ، ومما حذر منه. وقد أشار دولته في مقدمة الكتاب إلى ذلك بقوله: – (وإني لأجد نفسي اليوم مسؤولا عن تبيان جوانب مهمة عن مواقف غير معلنة، في مواجهة مع التاريخ، لأقول: ثمة قرارات كثيرة اتخذتها في غرف مغلقة، وحوسبت عليها، وطعن بمواقفي بعدها، لكنها لله وللتاريخ والوطن، هي مواقف لست بنادم عليها، فمنذ معارضتي لقرار فك الارتباط، ومنذ ما حددت حكومتي شروطها للمشاركة في مؤتمر مدريد للسلام وتبنيتها، ومنذ استثنائي من عضوية مجلس الأعيان العام ١٩٩٧، فإني لا أعرف إلا لغة الإصلاح، ولا أراوغ في استخدامها، بيد أني ما زلت موقناً بأن قوى الشد العكسي هي المعطل الحقيقي لرؤى النظام.....انتهى الاقتباس، حصاد الزمن الصعب، ص١٠).

ختاما، يمكنني القول، هذا كتابٌ ممتع، وتجيء متعته من تنوع موضوعاته وعناوينه التي تختصر مشوار عمر بطوله، فمن المقالات السياسية إلى الرسائل والخطابات والكلمات التي ألقيت في احتفالات التأبين إلى المحاضرات التي تم تقديمها في الندوات والمؤتمرات والمناسبات الوطنية، كل هذه الوثائق وغيرها يضمها هذا الكتاب بين دفتيه، أي أنه يضم نماذج وأنماطاً من السياسيين والمفكرين والمشاهير، ممن كان لطاهر المصري المثقف والسياسي والإنسان وقفات طويلة معهم على ضوءٍ ما يتذكره هو شخصياً عنهم من خلال رحلة الحياة، وهذا الكتاب يتيح لنا أن نتعرف على هؤلاء الرجال الأفذاذ، كما يتيح لنا أن نعقد مقارنات بين صور الشخصيات والأحداث في أذهاننا، وصورها كما هي في الواقع، أو على الأقل كما رآها دولة طاهر المصري.

وأملي بعد أن يكون هذا الكتاب التوثيقي متعة للقارىء، وشهادة وتاريخاً للأجيال القادمة، وحوارا خلاقا يثري، ويكشف ويدفع ويحرض.

* شاعر وناقد من الأردن

التنوع الأسلوبي في الرواية وحوارية الخطاب

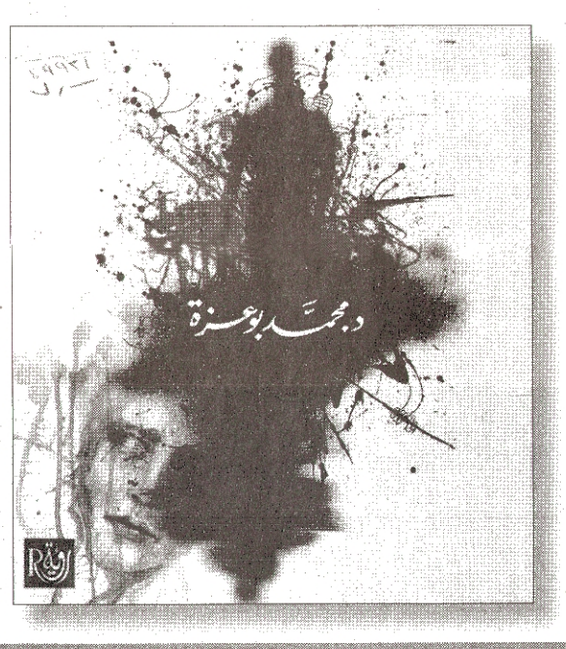

د. إبراهيم خليل*

معروفٌ أن الاعتراف بالرواية، من حيث هي نوع أدبي كغيره من شعر، ومن مسرح، قد تأخر كثيرًا، فقد ظلَّت الكثرة من أهل الرأي، والبصيرة بالأدب، ترى في الرواية لونًا من الكتابة الركيكة، المبتذلة، التي لا هدف لها غير التسلية، وبسبب ذلك لا تستحقُّ أنْ تُصنَّف في الأدب الذي يستحق أن يجري اختيارهُ للدراسة، والبحث. بيد أن القرن التاسع عشر شهد خروقا عدَّة لهذه القاعدة، ووجدنا عددًا من النابهين يلتفتون للرواية، ويقدِّرونها التقدير الذي هي جديرة به. ويحاولون وضع الأسس التي تقوم عليها نظرية الرواية منْ حيثُ هي نوعٌ له قواعده ومزاياه، غير أنَّ هذه المحاولات تأثرت تأثرا كبيرًا بما هو متداولٌ من نقدِ عن الشعر، وعن المسرحية بنوعيْها: الهزلي، والمأساوي.

وفي الكتاب الموسوم بعنوان «حوارية الخطاب الروائيّ « لمحمد بوعزة– من المغرب– (ط٢، رؤية للنشر، القاهرة،٢٠١٦) مُراجعة لهذه المفاهيم، تتضمّنُ نفيًا للأساليب، والمناهج النقدية التقليدية، التي دأبت على الحديث عن الرواية بمصطلحات بلاغية تقليدية، وكأنّ الدارس، أو الناقد، لا يتحدث عن رواية بل عن قصيدة، أوّ مسرحية من مسرحيات شكسبير، أو راسين. والاستثناءُ اللافت لهذا النقد السائد جاءَ من ميخائيل باختين Bakhtine، الذي وجد في هاتيك الدراسات دراسات عقيمة، أقلِ ما يقال فيها أنها تقصي من فضائها النقدي ما تختلف به الرواية، وتختصّ، من حيث اللغة عن غيرها من الأجناس. فإذا كانت القصيدة تعتمد لغة واحدة متجانسة، تعبّر عن صوت الشاعر المبدع وحده، في أداء يضمن تطابق الذات مع الأداة، فإنّ الرواية تعتمد على تعدد (اللغيّات) وتعدّد الأصوات، وإن كانت لا تخفي، في الوقت نفسه، حضور الكاتب من حيث أنه هو الذي يقوم بتنظيم اللغيّات، والتنسيق بين الأساليب المتعددة التي يتجلى في بعضها أسلوب الجنس الروائي، وفي بعضها أسلوبُ الفئات الاجتماعية، والشرائح الطبقية، التي ينتمي إليها الشخوص، فضلا عن أسلوب اللغة الذي تحدِّده وقائعُ اللسان.

فالرواية تحتاجُ لدراسة أسلوبية مغايرة لتلك التي تُتبَع، وتُنْتهَج، في دراسة الشعر، ففيها لا يكتفي الكاتبُ بمتكلم واحد، كما هي الحال في أكثر القصائد، وإنما ثمة متكلمون، وكل متكلم منهم، بالإضافة إلى أنه شخص، يمثل فردًا، يمثل، بالدرجة نفسها، شريحة من الناس. وإذا كان الناسُ – بطبيعة الحال – تتقاسمهم اهتمامات، وإيديولوجيات متعددة، فإنّ كل متكلمٍ، تبعًا لذلك، يتمثل في لهجته أسلوبًا يتسق مع هذه الإيديولوجيا، أو تلك. وعليه، فإنّ النقد التقليدي الإيديولوجي تجنب في مساره التطبيقي هذه المسألة، ونظر إلى أسلوب الكاتب بوصفه الأسلوب الوحيد الذي يتجلى في الرواية، وهذا خطأ فاحش في رأي باختين، لأن الجنس الروائي، خلافا للشعريّ، يتصف بتنوع الأساليب.

فالحوارُ في الرواية يكاد يكون، بصورة من الصُوَر، نموذجًا لتعالُق اللغيّات. علاوة على أنّ الرواية، بتمثيلها نوعًا أدبيا مفتوحًا تتخلله أنواع أدبية أخرى كالاعتراف، والرسائل، والمخاطبات، والكتابات الوصفية للرحلات، والسيرة، وهلمجرا...فإنها تسمَحُ أيضا بتنوُّع مركب للأسَاليب، فأسلوب الرواية المتنوع تتخلله أساليبُ أخرى، وقد تتجلى هذه الأساليبُ في النسق الذي تتخذه أوضاع اللغة السردية، والحوارية، ولا سيما الحوار الهزلي.

ومن هنا يستنتجُ المؤلف، محمد بوعزة، أنَّ كاتب الرواية، بتعمده كتابة روايته بأساليب، ولغيَّات متعدِّدة، وفقا لتنوع الشخوص، وتنوع الأشكال الأدبية الأخرى، التي تتموْضعُ داخل النص، يقوم بتهجين Pidgin اللغة، والتهجينُ هو مزج لغتين اجتماعيَّتيْن – أو أكثر– داخل ملفوظ واحد، أو التقاءُ وعيَيْن لسانيَّيْن – أو أكثر– مفصولين بحقبة زمنية مثلا، أو بفارقٍ اجتماعي، أو بهما معًا، داخل ملفوظ واحد. (ص٤٠)

ومن الناحية النظرية – على الأرجح– تبدو لنا هذه الفكرة شديدة الوضوح، بيد أن القارئ العادي – لا المتخصِّص– يفضل أن يُذكر في هذا السياق مثال، أو أكثر، يُبيّنُ له كيف تتداخل اللغات، وتمتزجْ فيما يسميه المؤلف التهْجين. ففي الواقع نجد نموذجًا لهذه الظاهرة في روايات صدرَتْ بعد تأليف هذا الكتاب (الطبعة الأولى ٢٠١٢) كرواية ساق البامبو لسعود السنعوسي (الدار العربية للعلوم– ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٣) حيث الأشخاص ينتمون لهويات متعدِّدة، وقد تجلى أثر صراع الهويات في الأقوال، والمنطوقات، التي تصدر عنهم في شتى المواقف، ومختلف الحوارات. ولهذا يجد القارئ في تلك الرواية خليطا غير متجانس من لغات، ولهجات (إبراهيم خليل: أساسيات الرواية، فضاءات للنشر والطباعة والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٥،ص٢١٨) في السرد كما في الحوار الفردي، والجماعي. وهذا أيضا نجده في رواية « مصائر «لربعي المدهون (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠١٥). وفي غياب التحليل المختصر لبعض النماذج الروائية، يَبْقى ما يقوله محمد بو عزة، على الرغم من وضوحه، قولا لا يُؤمن معه اللبْس، ولا سيما لدى أولئك الذين لم يقرؤوا كتاب باختين شعرية دستويفسكي(ثمة ترجمة عربية للكتاب من إعداد جميل التكريتي، طوبقال للنشر، ودار الشؤون الثقافية، بغداد، والدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦) أو كتابه الثاني (المبدأ الحواري) الذي ترجمه محمد برادة.

لا بد إذا من الوقوف، قليلا ، لدى مفهوم حوارية الرواية، على أساس أنها النوع الأدبي الوحيد الذي يحتمل نصيبًا كبيرًا من هذا التنوّع، ولا بد أيضا من التذكير بحرْص الدارسين على تأكيدهم قدرة الشعر، والمسرح الشعري، والنثري، علي هذا التنويع، وإنْ كان بدرجة أقلّ كثيرًا مما يسمح به الخطاب الروائي. فالتهجين في الشعر من لزوم ما لا يُلزم، لكنّه في الرواية شرط أساسيّ، وجزءٌ لا يمكن إهماله من أساسيّات الرواية. ومن الجائز أن يتخذ هذا التهجينُ أشكالا عدة، منها المحاكاة، والمحاكاة الساخرة، كتلك التي يجدها القارئ في بعض روايات جمال الغيطاني(١٩٥١– ٢٠١٥) الزيني بركات(مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥) أو بعض روايات مؤنس الرزاز(١٩٥١– ٢٠٠٢) متاهة الأعراب(المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٦) ومنها التناصّ، والتفاعل النصّي الداخليّ، والخارجي، وهذه هي بعض الطرق التي يلجأ إليها بعض الكتاب– عادة – لكسر هيمنة النسق الواحد على لغة الكتابة، وتجاوزه.

ولا يغيب عن المؤلف، بوعزة، الذي استعان – ها هنا– بآراء سعيد يقطين (وللاستزادة انظر: الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٢ص٧٧)، التوكيد على حقيقة لا تحتمل الريب، وهي أن الرواية تناضل، على الرغم مما فيها من تهجين، وأسْلبة، للحفاظ على خصوصيتها من حيث هي نوعٌ أدبيٌ، سرديٌ، يحتل موقعا متقدمًا بين الفنون، واعترافا بشرعية وجوده في قائمة الأجناس، وتتجلى هذه الخصوصية في مظاهر شتى، أبرزها الطابع البوليفوني، خلافا للشعر الذي يتسم بالطابع الأحاديّ.

وهذا هو موضوع الفصل الرابع الذي يتتبع فيه المؤلف انتقال هذا المصطلح من الموسيقى إلى حقل الأدب. وذلك لا يعنى قطعا أنّ الرواية تتأثر بالموسيقى القائمة على التوظيف المتزامن لنغمتين مختلفتين في اللحن السمْفوني، وإنما يراد بالبوليفونية في الأدب عامة، والرواية خاصة، حظوظ الأصوات المتعددة فيها بمقادير متساوية تقريبًا من اهتمامات الكاتب، فلا يجورُ أحدُ هذه الأصوات على الأصْوات الأخرَ. وقد عزا باختين عبقرية دستويفسكي(١٨٢١– ١٨٨١) لمراعاته، والتزامه هذه التقنية، في رواياته الكثيرة جدًا. وإذا كانت الروايات الأخرى توصف بالروايات المونولوجية، أي أنها تعتمد الصوت الواحِد المهيمن على سائر الأصوات، وسائر الشخوص، فإن روايات دستويفسكي تتصف بالبوليفونية؛ كونها تعرض إيديولوجيا الشخصيات في إطار متوازن من الحوار الذي يختفي فيه الكاتبُ عن الأنظار، تاركا للشخصيات، وحدها، أن تحدّد قواعدَ اللعْبة، (ص٩٥) أي أن دستويفسكي يتجنب في رواياته الانحياز لصوت دون آخر، مكتفيًا بتنظيم أشكال الوعي المتعددة داخل الرواية، وتشخيصها، بمقادير مُتساوية، لا تؤدّي إلى هيمنة وَعْي واحد على الآخرين (ص٩٧). فالرواية البوليفونية تختلف عن سواها بكثرة الأصوات ذات الحقوق المتناظرة، وتعدد العوالم الروائية، وتحميل كل صوت منها رؤيته للعالم، تلك الرؤية التي قد تلتقي، أو تختلف، مع غيرها من رؤى الأصوات الأخرى، وهذا، بالطبع، يتيح للنص الروائي الثراءَ، والغِنى، في مستوى الإيحاءات، والدلالات، التي تتركُ الباب مفتوحًا أمام التأويلات (ص١٠٨)، وذلك ما لا يُتاح للرواية المونولوجية، ذات الصوت الوحيد، والبطل المهيمن على سائر الشخوص.

تثير هذه الملاحظ عن تعدد الأصوات في الرواية، وتعالق اللغيّات، إشكالية جديدة طالما تجنبها النقد التقليدي، أو تجنب الوقوف عندها، بكلمة أدق، وهي إشكالية اللغة التي تكتب بها الرواية، وهل يمكن لها أن تكتب بلغة كتلك التي تكتبُ بها التراجيديا أو القصيدة؟ مثل هذا السؤال تسهل الإجابة عنه لدى باختين، فالشعر يكتبُ – مثلما ذكر– بلغة خاصة بهذا الجنس المنظوم المرصّع بالكثير الجمّ من المحسنات التي عُنيت بها البلاغة التقليدية كثيرًا. وإذا هيمن المعيار الشعري على نقد الرواية سقط الدرس النقدي في فخ التحيُّز للقصيدة (ص١١٤). ولهذا فإن المبدأ البديل هو النظر للرواية بوصفها تشكيلا لغويًا خاصًا يستمد مزيّته من تصويره للعوالم التخييلية المعقدة، والمركبة، التي تحتاج إلى ناقد أدبيّ يجيد المقاربة التفاعلية، الديناميةـ الموسّعة، التي لا تتوقف عند الحديث عن التشبيه، والاستعارة.(ص١١٧)

علاوة على أن المبدأ البديل هذا يستبعدُ من لغة الرواية عنْصر الأنا، ويحل عوضًا عنه عنصر الغير، أو الآخر. فالشعر ذو لغة ذاتية، والرواية ذات لغة غيْرية، تفصحُ عن أسلوب الآخر في التفكير، والمحاورة، والتكلم بنبرة تنمُّ على الاستقلال التام عن صوت المؤلف. وثمة فرق يلحظه القراء الروس لروايات تولستوي (١٨٢٨– ١٩١٠)، ودستويفسكي. فالأول تغلبُ على رواياته اللغة الذاتية، خلافا لدستويفسكي(١٨٢١– ١٨٨١) الذي يختفي وراء لغته السردية ذات الأساليب المتعددة بتعدد الشخصيات. أما ما يذهب إليه بعض نقَدَة الرواية من ادّعاء أنّ « الرواية تستمد شعريتها من القصيدة « فرأيٌ يتصدى له باختين بحزم، مؤكدا أنّ الرواية، وإن اقترضتْ بعض الاختيارات الأسلوبية من القصيدة، إلا أنها لا تفعل ذلك بهدف اقترابها من ذلك الفنّ الأدبي، وإنما تفعل ذلك بطريقة تتحرَّك بدينامية داخليّة ملائمة لهويّتها السردية، (ص١٢٥) وبغير ذلك يفسد الكاتبُ الرواية. وتأسيسًا على ذلك يُقال في خلاصة مقترحة لهذا الكتاب: إن الشاعر الذي يتوجه في مرحلة ما للرواية، بدلا من الشعر، لا يستطيع أن يكتب شيئا ذا بال، ما لم يتخل عن شرَك اللغة الشعرية التي اعتادها في كتابة القصيدة، وإذا لم يتخل عن تلك البلاغة، فإنّ النتائج المترتبة على ذلك مزيدٌ من الكتابات الركيكة التي تسمّى زورًا رواية.

* ناقد وأكاديمي من الأردن